إنسانيات عدد مزدوج 29-30، جويلية – ديسمبر 2005، ص.ص.143-171

الاسم: هوية وتراث، مقاربة أنثروبولوجية لدلالة الأسماء في قسنطينة (1901-2001)*

هدى جباس**

I. تمهيد

هذا البحث مُحاولة منا لدراسة موضوع لم ينل نصيبه من البحث والتحليل بعد، من خلال مُقاربة مُستنبطة من علم[1] مازالت جذوره لم ترس أسسه بعمق في بلادنا العربية: الاسم الشخصي[2] من خلال مُقاربة أنثروبولوجية لبُعده الهُوياتي والتُراثي في علاقته بالفضاء القسنطيني.

إنّها المُحاولة/الرِّهان التّي أردنا من وراءها تسليط الضوء على جانب من الهُوية الثقافية للقسنطيني في شقِّها الأونوماستيكي: «الهُويـة الأونوماستيكية»[3]،

* ماجستير في الانثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية، تحت إشراف فاطمة الزهراء قشي، جامعة قسنطينة، ديسمبر 2005.

** باحثة دائمة بالمركز الوطني للبحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية، فرع قسنطينة.

1 نقصد علم الأنثروبولوجيا.

2 لقد انتهينا في بحثنا هذا إلى اعتماد تعبير *"الاسم الشخصي"* للتدليل على ما يُعرف باسم الأنا « Le nom d'Ego» أو بـ«Le Prénom»، وذلك لأنّنا صادفنا من بين المُؤلفين المُحرِّرين باللّغة العربية من استخدم تعبير *"الاسم"* بمعناه الضيِّق ليُدلِّل به على "الاسم الشخصي" فقط، ومن استخدم نفس التعبير بمعناه الواسع الضام للاسم الشخصي، اسم العائلة (le nom de famille/ le nom) وأحيانا حتّى للّقب (Surnom/Sobriquet). تماما كما صادفنا من بين المُؤلِّفين المُحرِّرين باللّغة الفرنسية من استخدم تعبير «Le nom» ليقصد به نفس المعنى الذي رمى إليه غيره حينما استخدم تعبير «Le prénom».

3 Benramdane, Farid, «Qui es- tu? J'ai été dit. De la destruction de la filiation dans l'état civil d'Algérie ou éléments d'un onomacide sémantique», in *Violence contributions au débat*, Insaniyat, n° 10, Janvier – Avril (Vol. IV, 1), CRASC, 2000.

بُغية معرفة أهم الوحدات الدلالية للنظام التسموي القسنطيني والكشف عن ماهية ظوابطه عبر مساره التاريخي.

وإنّه الموضوع الذي تجنّبه الكثير من أهل الاختصاص في بلدنا، كما اعتبره غيرهم لا يستحق بذل أي مجهود علمي[4]؛ على الرغم من حيازة البحث الأنثروبونيمي كفرع معرفي من الأونوماستيك[5] «l'onomastique»– أو الأعلاميات– يُعنى بدراسة ايتيمولوجية وتاريخية أسماء الأشخاص[6]، على اهتمام الكثير من علماء الغرب على اختلاف مشاربهم وتنوع توجّهاتهم.

والأونوماستيك تعبير مُشتق من اللفظ اليوناني« Onomastikos» المُؤلَّف من الشقين «onom» ويعني اسم و«astikos» ويعني مُتعلِّق بـ«relatif au»، ليُصبح التعبير بشقيه "مُتعلِّق بالأسماء" أو بعبارة أكثر دقة "مُتعلِّق بأسماء الأعلام أو "مبحث أسماء الأعلام"[7].

---

[4] أحقا تنوين إنجاز مذكرة ماجيستير عن الأسماء الشخصية؟! (*ماجيستير عْلَى الأسماء، وَاشْ حَاتَهْدْرِي عْ لَأسماء!*): عبارة استغراب ودهشة كرّرها على مسامعنا كثيرون، من بينهم نسبة مُعتبرة من ذوي الشهادات الجامعية في مُختلف الاختصاصات!

[5] للإشارة نذكر أننا اعتمدنا في بحثنا هذا على الأخذ بتعريب بعض المصطلحات، بدلا من ترجمتها التّي لم تجد إجماعا –حتّى الآن– بين القلّة من الباحثين العرب الذين اهتموا بالموضوع.

[6] حيث تتميّز الأنثروبونيمية بالبحث في الاسم الشخصي، اللّقب، الباترونيم، الإيثنونيم والهاجيونيم...

[7] إذا أخذنا بتعريف قاموس هاتزفيلد (Hatzfeld) ودارمستتر (Darmesteter) لاسم العلم، والذي يعدُّ حسب بيلي بيار–هنري أول تعريف دقيق، أعطاهُ قاموس لغة فرنسية لاسم العلم؛ يتجلّى لنا واضحا بأنّ اسم العلم هو محور اهتمام الأونوماستيك، ومُحدث خُصوصيتها، وعليه فإنّه يُمكننا القول بأنّها علمٌ أسماء الأعلام الدارس لايتيمولوجية، أصل، نشأة ونظام الأسماء جغرافية كانت أم بشرية، حيث يُشكّل الشق الأول موضوع اهتمام التوبونيمية (toponymie)؛ مبحث أسماء الأعلام الجغرافية أو علم دراسة أسماء الأماكن (noms de lieux)، أمّا الثاني فيُشكّل حلقة بحث الأنثروبونيمية (l'anthroponymie)؛ **مبحث أسماء الأعلام البشرية أو علم دراسة أسماء الأشخاص** (noms de personnes) وهو الشقّ الذي ميّز موضوع بحثنا لا سيّما فيما تعلّق منه بالبحث في **الاسم الشخصي**. وللمزيد يُنظر:

Basset, A., «Pour une collecte des noms propres», in *Extrait du Bulletin de l'Institut français d'Afrique noire*, tome XII, n° 2, avril, 1950 ; Billy, Pierre-Henri, «Le nom propre et le nom sale», in *NRO*, n°21-22, 1993; Fabre, Paul, «Vous avez dit hydronyme, mon cher lebel?», in *NRO*, n° 9-10, 1987.

II. دراسة أكاديمية أنثروبولوجية عن الاسم الشخصي بالفضاء القسنطيني؟!

قد يتبادر إلى أذهان البعض أن يتساءل عن العلّة أو الغاية المرجوة من وراء الاهتمام بدراسة الاسم الشخصي في قسنطينة من منظور أنثروبولوجي؟ سيكون جوابنا بسيطا:

لأنّ الأنثروبولوجية –والمُعرّفةُ إيتيمولوجيا على أنّها علم الإنسان[8]– تقوم على فهم الذهنيات من خلال تحليل المُمارسات، فلقد كان الغرض تناول ماهية الأونوماستيك بوصفها علما فتيا في الأوساط العربية بصفة عامة، والحديث عن الأنثروبونيمية بوصفها مبحثا نادرا تمّت الإشارة إليه على مستوى الفضاء الجزائري (القسنطيني) بصفة خاصّة، ناهيك عن معرفة أثر الفضاء على المخيال الأونوماستيكي من خلال ما يُنتجه من مُمارسات تسموية عبر الزمن.

ولأنّنا في حاجة إلى دراساتٍ تساؤل التفاصيل التّي، وإن بدت صغيرة إلاّ أنّ دورها يبقى كبيرا في هيكلة حياتنا، وفي التدليل على أهم ملامح موروثنا الحضاري، وخُصوصية هُويتنا الثقافية الاجتماعية... فالاسم الشخصي لا يعدُّ رفيق حياة[9] بالنسبة للإنسان فحسب بل إنّه "التسمية الوحيدة للهُوية الحميمية للفرد"[10] فإذا كان "اسمك العائلي هو بطاقة هُويتك، لوح ترقيمك؛ فانّ اسمك الشخصي هُو أنت.."[11]. والحديث عنك لا يتّم في الأحوال العادية إلاّ من خلال ذكر اسمك الشخصي، أمّا اقتصار التعامل معك عليه فلا يدلُّ إلاَّ على حميمية أكثر في العلاقة لما فيه من رفع للكُلفة[12].

---

[8] Pour plus de détails, consulter : Marie-Odile, Gérard, Olivier, Leservoisier, Richard, Pottier, *Les notions clés de l'ethnologie. Analyses et textes*, Paris, Armand Colin / Masson, 1998, p.14

[9] Dib, Fatiha, *Les prénoms arabes*, Paris, Editions L'Harmattan, 1995, p. 11

[10] Geoffroy, Younès & Néfissa, *Le livre des prénoms arabes*, Beyrouth-Liban, éditions Al-Bouraq, cinquième édition, revue et augmentée, 2000, p.18

[11] Le Rouzic, Pierre, *Un prénom pour la vie choix, rôle, influence du prénom*, Paris, Editions Albin Michel, 1978, p.9.

[12] فضلا عن مذكرة التخرج والتي نحن بصدد الكشف عن أهم ملامحها، لقد تعرضنا إلى هذه النقطة بشيء من التفصيل في: جباس، هدى، «الاسم الشخصي تكريس لتراث اجتماعي أم تفرد لهوية ثقافية»، في *الاسماء والتسمية. اسماء الاماكن، القبائل والاشخاص في الجزائر*، مُؤلّف جماعي، منسق: فريد بن رمضان، ابراهيم عتوي، منشورات CRASC، 2005.

وإنّ اهتمامنا بجانب من الهُوية المحلية القسنطينية، لم يكن أبدا من مُنطلق إقصائي للهُوية الجزائرية في عُمومها، ولكنّها طبيعة الدراسة الأنثروبولوجية وإرادة الغوص في الخُصوصية المحليّة للتُراث القسنطيني، ذلك الجُزء من الكُلّ المُشترك للثقافة الجزائرية. فالحديث عن قسنطينة بوصفها معلما ثقافيا مُتميِّزا داخل المجتمع الجزائري لم يهدف إلى إبراز اختلاف ثقافي بقدر ما يهدف إلى الكشف عن جُزئية بحثية مُحدّدة من خلال التركيز على بُعد هُوياتي واحد من أبعاد الذات الجزائرية التّي تظل رغم اختلافاتها مُحافظة على الكثير من السمات المُشتركة؛ فالاسم الشخصي (القسنطيني) ليس إلاّ **منتوجا رمزيا وتراثا لاماديا** للثقافة القسنطينية في تفرُّدها والجزائرية في عُمومها يتأثّر بها ويُؤثِّر فيها، وهُو لذلك يتفاعل مع المُميّزات الخاصّة للفضاء، ويستجيب للتحوُّلات العامة الحاصلة في العالم والمُؤثِّرة في (القسنطيني) باعتباره *ذاتا جزائرية* تتقاسم مع غيرها من الجزائريين بعض الأفكار والمواقف المُشتركة تجاه بعض الأحداث، وباعتباره *ذاتا مُنفردة* لها أفكارها الأيديولوجية الخاصّة التّي يُمكن أن تشترك فيها مع البعض من جماعة انتمائها، تماما كما يُمكن أن تتعارض فيها مع البعض /الآخر المُنتم إلى نفس تلك الجماعة.

تُوضحُ فكرة «نُمو الاسم وتطوره»، نتيجة تحميله كلّ مرّة بحُمولة مختلفة تشهدُ على«الزمن»، وتُمثِّل «الفضاء»، وتعكسُ «الواقع»، وتُعبِّر عن «الانتماء» للوسط الذي يظهر فيه –أو للهُوية الثقافية لمَانِحه (المُسَّمِي)– أنّ الاسم الشخصي «تواصل اجتماعي–ثقافي» بين المولود ومُجتمعه. وأنّه لا يُوفر أكثر عناصر المنظومة التسموية بداهة فحسب، بل إنّه يُمثِّل أولى خُطوات استدخال الفرد لأسس النظام الرمزي، الاثني، الثقافي و الهُوياتي لفضائه الاجتماعي؛ حيث يؤمِّن فِعلُ مَنْحِهِ بداية حلقات سيرورة بناء هُويته ومجتمعه (تنشئته اجتماعيا)[13].

وعليه فقد تمحورت إشكالية بحثنا حول مُحاولة الكشف عن أهم ملامح الهُوية الأونوماستيكية في الفضاء (قسنطينة) وعبر الزمن (قرن)[14]، حيث سعينا إلى وصف المشهد الأونوماستيكي من خلال:

---

[13] تم التفصيل في هذه النقطة أيضا في: جباس، هدى، نفس المرجع السابق.

[14] غير مُتواصل: سنواته مُوزعة على فترات.

➢ الحـديث عـن الاسـم الشخـصي في مُحاولـةٍ لإبـراز مكانتـه ضـمن النظـام التسموي ككل، وذلك عبر التركيز على الكشف عن أهم ملامح المخيال التـسموي في قسنطينة، مع الإشارة إلى مسألة التشويه الدلالي الـذي تعـرّض لـه اسـم العَلـم الجزائري خلال مُحاولة هيكلة نظام حالته المدنية وفق الأُسس التِّي وَسَمت نظـام المُستعمر.

➢ الكشف عن أهم الوحدات الدلالية للمنظومة التسموية في الفضاء القسنطيني فيما يخصُّ شقَّها المُتعلِّق بالاسم الشخصي -الأنثوي و الذكروي- وذلـك باسـتقراء دلالات التغيُّر في خارطـة الاختيـارات التـسموية، ورصـد ماهيـة ضـوابطها علـى المُستوى المُورفولوجي والدلالي بتتبع شعبية الاسم الشخصي الواحـد[15] عـن طريـق قياس كثافة تواترِهِ.

لقد سعينا باختصار إلى التحدث عن المُمارسات الأونوماستيكية **(القسنطينية)** فيما يتعلّقُ بفعل تسمية الأشخاص، حيث حاولنا مُعالجة اشكاليتنا انطلاقـا مـن سؤال رئيس: كيف تتهيكل الوُصْلَة الثلاثية **[فضاء اجتمـاعي- تـراث محلـي – هوية ثقافية]** داخل المخيال الأونوماستيكي في قسنطينة؟. وبطرحنا لهذا الأخـير فرضت علينا مجموعة من التساؤلات الفرعية نفسها، نحو:

-ما ماهية الاسم الشخصي؟ وهـل بإمكانـه أن يُمثِّـل فعـلا جُـزءا مـن هُويتنـا الثقافية؟[16] .

-ما هي الحركية الاجتماعية للفعـل الانتقـائي للأسمـاء في قـسنطينة[17]؟ وهـل بإمكان ذلك الفعل أن يعكس المكانة والمظهر الاجتماعي حقا؟.

-ما هو الرصيد التُراثي والهُوياتي للأسماء في الفضاء القسنطيني طيلة قرن مـن الزمن؟.

-هل يُمكن لاسم الـشخص، أن يُترجـم بـصدق المُنحـدر الاجتمـاعي والثقـافي لحَامِله أو لمَانِحِه؟ وكيف يُمكن للمجالات الدلالية المُعتمدة أن تُترجم المعتقـدات، أو حتّى الأيديولوجيات الفردية والجماعية للجماعة التِّـي ينتمـي إليهـا صـاحب الاسم أو مُطلقه؟.

[15] أو النموذج التسموي الواحد.

[16] بمعنى هل يُعدُّ الاسم أداة أو وسيلة من وسائل التعبير الثقافي؟.

[17] أو بعبارة أخرى ما هي سيرورات انتشار الأسماء في قسنطينة؟ أو كيف بُنيت الأسماء تاريخيا بالفضاء القسنطيني؟.

–ما مدى تأثر التصنيفات الدلالية للأسماء بالأوضاع السوسيوثقافية للفضاء المُستكنى؟، و كيف يُمكن لبعض الأسماء أن تُصبح أداة للإقصاء الاجتماعي؟.

– هل تُعبِّر التوجُّهات الجديدة المُعتمدة مُؤخرا في عملية انتقاء الاسم، عن أزمة في الهُوية الثقافية للقسنطيني، أم هي فقط وجه من أوجه السيرورة التثاقفية داخل المُجتمع؟. ما الذي يُمكن أن يبعث على انبثاق اسم ما أو أن يدفع بالفاعلين الأونوماستيكين[18] إلى اعتماد نموذج تسموي جديد (أو غريب) عن ما سبق الأخذ به من أعراف ونظم اجتماعية؟.

II. فرضيات البحث

بناءاً على إشكالية بحثنا وضعنا فرضية عامة مفادها أنّ: أهم ملامح المخيال الأونوماستيكي في الفضاء القسنطيني إنّما تتحكمُ في تحديدها الوُصْلَة الثلاثية **[فضاء اجتماعي – تراث محلي – هوية ثقافية]**، ولقد حاولنا تفسيرها أو التعبير عنها بصورة أوضح من خلال بعض الفرضيات الجزئية:

- ❑ يُوَجِّهُ التراث الاجتماعي– الثقافي نوعية المجالات الدلالية المُعتمدة في التسمية.
- ❑ تتحكم العوامل النفسية في بعض الخُصوصيات الانتقائية للوظيفة الدلالية للاسم.
- ❑ تُؤثِّر الأحداث التِّي أسهمت في نسج التاريخ السوسيو– الثقافي المحلِّي أو حتّى الخارجي على التمثُّلات الذهنية الاسمية وعلى نوعية اختيار أسماء الأشخاص.

III. أدوات البحث، الاختيار بين الضرورة البيداغوجية والمُتطلبات الميدانية!

للكشف عن أهم الدلالات التِّي تتحكم في توجيه المخيال التسموي للقسنطنيين، اعتمدنا منهجا وصفيا تحليليا وجُملة من المصادر والأدوات البحثية المُتنوعة التِّي حدّد اختيارها طبيعة الموضوع وخُصوصية ميدانه:

[18] أولئك الذين يُمارسون فعل التسمية أو يُسهمون في توجيه الوظيفة الانتقائية خاصّته.

1.المُلاحظة الوصفية

اضطلعت بالتغيُّرات والتوجُّهات الأونوماستيكية الجديدة حيث سعينا من خلالها إلى تتبع كلِّ جديد يظهر على الساحة الأنثروبونيمية الجزائرية بصفة عامة والقسنطينية بصفة خاصّة، عن طريق تقصِّي اسم كلّ مولود جديد ازدان به بيت قريب أو صديق، ومن خلال صفحات الجرائد المُخصّصة لإعلانات الولادة، وغيرها من المظان التِّي استقينا منها ما يخدم بحثنا هذا.

2.المُقابلة البحثية

ارتأينا اعتمادها كأداة من أدوات بحثنا لأنّها تُعدُّ وسيلة هامة من وسائل جمع المعلومات والبيانات، حيث اعتبرتها «مدرسة شيكاغو»: "أداة إلزامية (إجبارية) للمُقاربة الاثنوغرافية في الميدان"[19].

تأتي المُقابلة البحثية التِّي ترتكز على الكثير من الأُسس العلمية[20] على عدّة أشكال لكلٍّ منها مُميِّزاته ومُتطلباته الخاصّة، وقد ارتأينا في **المقابلة نصف المُوجهة**[21] الشكل الأنسب لموضوع بحثنا ؛ ذلك أنّها تُوفر نوعا من الحرية للمبحوثين[22] -أثناء تبادلنا اللّفظي معهم– للتحدث عن مشاعرهم وصُورهم الذهنية

[19] Blanchet, Alain, Gotman, Anne, *L'enquête et ses méthodes : l'entretien*, Paris, Editions Nathan, 1992, p.15.

[20] ومن أبرز تلك الأُسس التِّي حاولنا الالتزام بها قدر الإمكان، أنهاّ علاقة اجتماعية دينامية تعتمدُ التبادل اللَّفظي بين الباحث والمبحوث، حيث تكمن ميزتها الأساسية في تشكيلها، كونها تُشكِّل حدثا كلاميا (fait de parole) وهو ما قال به لابوب وفينشل (1977) حين عرّفاها فيما سبق من مرجع على أنّها تجربة (أو حدث) كلامي (speech event) يستخرج من خلاله الشخص أ معلومة من الشخص ب.

[21] والتِّي كان من أسباب اعتمادنا لها تفادي: المُقابلة الحُرّة، لما قد ينجرُّ عن تطبيقها من تشعب في المواضيع وهدرٍ للوقت، فيما قد لا يمتُّ بصلةٍ لموضوع البحث، وتجنُّب المُقابلة المُوجّهة: لِمَا قد تُسببه من تحريض لإجابَات مُعيّنة لدى المبحوثين، أو لِمَا قد تفرضهُ من تقييد لبعض إجاباتهم؛ وهو ما قَدَّرنا أنّه سيُضفي على تبادلنا اللّفظي معهم نوعا من الصرامة التِّي من المكن أن تتسبب في حرماننا من الخوض في جوانب كان من المُمكن أن تُفيدنا أكثر في بحثنا لو نحن تركنا لهم بعضا من الحرية في التعبير.

[22] لقد أجرينا المُقابلات مع بعض المُمثلين عن ما يُسّمى تعسُّفا في قسنطينة *بـالبَلْدِيَة* ؛ حيث كان اختيارنا قصديا لبَلْدِيين من أجيال مُختلفة بُغية معرفة دلالات التسمية بالنسبة لكلِّ جيل فضلا عن قياس درجة تغيُّر الاسم على مستوى الَمبنى (كيفية صياغته) أو المعنى (نمط استخدامه). والبّلْدِيَّة، هم أصحاب البلد، وهو اصطلاح يُطلقه أهل المدينة للتدليل على أبناءها الشرعيين أو القسنطينيين الأصليين الذين لا يتسمون بمكانتهم الاجتماعية الرفيعة وعاداتهم العريقة فحسب بل وبتركيزهم المبالغ فيه أحيانا على مسألة النطق.

عن الاسم ومُمارساتهم لفعل منحه، كما تُتيح لنا فرصة توجيههم ضمن أسئلة خمّنا أنّ الإجابة عنها هي التّي ستخدم بحثنا بصفة أكثر. ولقد عملنا على تقديم أسئلة مُقابلاتنا بصيّغ مُختلفة حتّى نتأكد من مصداقية الأجوبة المُقدّمة لنا، كما حرصنا على مُراعاة بعض الشروط[23] التّي خصّت إجرائية التطبيق بغرض كسب ثقة مبحوثينا وبالتّالي ضمان مصداقيتهم وتعاونهم.

وفي تحليلنا لنتائج[24] مُقابلاتنا اعتمدنا تقنية "تحليل المضمون"[25]؛ حيث حدّدنا أربع محاور(Items) رئيسية[26] تضّمن كلٌّ منها مجموعة من الأسئلة التّي توقّعنا أنّ الإجابة عنها ستكشف ما نحن بصدد البحث عنه: أهم ملامح الهُوية الأونوماستيكية «الاسم الشخصي» في الفضاء «القسنطيني» وعبر الزمن «قرن».

3. *الوثيقة*: تفرّعت إلى نوعين:

1.3. وثيقة شجرة العائلة[27]: وهي التّي تضمّنتها سجلات الشجرة العائلية بمصلحة الحالة المدنية لبلدية قسنطينة، ولقد كان الغرض من وراء اعتمادها كمصدر من المصادر المكتوبة لموضوع الدراسة وأداة من أدواته البحثية، هو إبراز المكانة الأساسية التّي شغلها الاسم الشخصي كأحد أهم عناصر المنظومة التسموية الجزائرية (القسنطينية).

---

23 و من بين تلك الشروط: الشرح المُفصّل للأغراض العلمية للمُقابلة قبل الشروع في تطبيقها، الإعداد المُسبق لمُخططها المُفصل، تحديد الموعد المناسب للقيام بها، التعهد بضمان سرية نتائجها وعدم استغلالها لغير أغراض البحث العلمي، تجنب التأثير على المبحوث مع الاستبعاد الكلّي للأسئلة الإيحائية...

24 التي لم تتضمن مُذكرتنا عرضا مُنفردا بها، حيث تمّ الاحتفاظ بذلك لعرضه مُزاوجة مع النتائج التّي أسفرت عنها مُدونة البحث؛ ذلك أنّ القيمة التفسيرية التّي أسفر عنها تحليل نتائج المُقابلات قد أسهمت إلى حدٍّ كبير في مُساعدتنا على فرز المجالات–أو الأصناف– الدلالية لرصيد أسمائنا.

25 كما راعينا الوقوف على عدّة أمور فيما يخصُّ إجراء التطبيق، من مثل: عدم اتباع أسلوب قراءة الأسئلة من الورقة أثناء قيامنا بالمُقابلات، عدم طرح الأسئلة باللّغة العربية الفُصحى أو بالترتيب المُحدَّد سلفا، تجنب أن يأخذ التبادل اللّفظي مع المبحوثين طابع «سؤال- جواب»، التركيز على الالتزام بانتهاج بعض التقنيات في طريقة تحليل مضمون المُقابلات نحو: قراءة نص المقابلة كما جاء على لسان المبحوث قراءة جيِّدة تمّ فيها الابتعاد ما أمكن عن عنصر الاختصار أو التلخيص فكلُّ ما يقوله المبحوث مُهم وله دلالة، واستخراج النقاط الحساسة واستثمارها كمعالم مرجعية في التحليل والتصنيف...

26 كان للأستاذ «جمال مصري بولبيار» (أستاذ بجامعة قسنطينة، وباحث مُتعاقد مع CRASC)، فضل كبير في وصولنا إلى البناء النهائي لتلك المحاور.

27 Registre de l'arbre généalogique de la commune de Constantine, n° 1-2, APC de Constantine, 1989.

2.3. وثيقة الميلاد[28]: تراسّت قائمة وثائقنا الأرشيفية وتمثّلت في وثائق **الميلاد** التّي احتوتها سجلات الحالة المدنية للولادات بمصلحة الحالة المدنية لبلدية قسنطينة، والتّي شكّلت المادة الأساس لمُدونة بحثنا حيث وبغرض استقراء التحوّلات التاريخية للاسم عبر مساره التاريخي المُستنبط من درجة تواتره، أخضعنا المُعطيات المُتوفرة في السجلات المعنية إلى مُقاربتين إحصائيتين بالعيِّنة: **مقاربة تولّدية**، تضمّنت خمسة أجيال مُتتابعة بما يُوافق خمسا وعشرين سنة لكلّ جيل: (1901، 1926، 1951، 1976، 2001)، وهي المُقاربة التّي سعينا من خلالها إلى رصد التنوعات الدلالية للاسم في المكان وعبر الزمان. **ومُقاربة تزامنية**؛ خصّت تواريخ مقصودة ارتأيناها مُؤثرة في نسج التمثُّلات الذهنية للقسنطينيين وفي توجيه مخيالهم التسموي، لمُساهمتها في صُنع التاريخ السوسيوثقافي للجزائريين ككلّ بما حملته من تغيُّرات اجتماعية وإفرازات ثقافية مُختلفة شهدها الفضاءان الجزائري والقسنطيني على حدٍّ سواء: **الاستقلال الوطني** (1962-1963)، **سنوات التفاعل الجماهيري** (1988، 1989، 1990، 1991، 1992)[29].

رصدنا كلّ المعلومات المُقيّدة بوثيقة الميلاد وباللُّغة التّي دونت بها دونما أن نحدث أي تغيير[30]: اسم المولود ولقبه، تاريخ ومكان الازدياد، اسم الأب، تاريخ ومكان مولده، سنه، مهنته، اسم ولقب الأم، تاريخ ومكان مولدها، سنها، مهنتها (إن ذُكرت)، نسب الأم والأب وأسماء الشهود وألقابهم (خاصة بالنسبة لسنة 1901)، رقم شهادة الميلاد...

---

28 سجلات الحالة المدنية للولادات، سنوات: (1901، 1926، 1951، 1962، 1963، 1976، 1988، 1989، 1990، 1991، 1992، 2001)، مصلحة الحالة المدنية، بلدية قسنطينة.

29 تناولنا هذه النقطة أيضا وبمزيد من التفصيل في: جباس، هدى، «التسمية في قسنطينة: بين ترسيخ الماضي ومُواكبة الحاضر»، في *الجزائر: 50 سنة بعد: أمة، مجتمع، ثقافة*، ملتقى علمي انعقد تكريما للمفكر مصطفى الأشرف (مسيرة حياة، أعمال، مرجع)، تحت الطبع، جمعية .A.A.D.R.E.S.S، مجلة NAQD، المكتبة الوطنية الحامة– الجزائر، أيام 18-19-20 ديسمبر 2004.

30 مثلما رصدنا كتابةً كلّ المعلومات أو المعطيات الخام المتضمنة بوثيقة الميلاد، أدخلنا كلِّ تلك المعلومات في الحاسوب ببرنامج الـEXCEL ودونما أدنى تغيير كذلك أملاً في مُعالجة إحصائية أفضل. ولم يكن أن يتم لنا ذلك لولا الأستاذة «عادل خديجة» التّي مكّنتنا مشكورة من العمل على جهاز الحاسوب بفرع الـcrasc – قسنطينة.

IV. عيِّنة البحث، بين مصداقية تمثيل مجتمع البحث ومراعاة خصوصية إجراءات التطبيق!

تمثّل مُجتمع بحثنا في سجلات الحالة المدنية المُتضمنة لشهادات ميلاد سكان مدينة قسنطينة بجميع بلدياتها[31]، ولأنّ تمثيل مجتمع البحث بصدق شرط أساسي في تصميم عينته، فـ "العيِّنة المُختارة [..] البحث يجب أن تكون ممثلة في مزاياه الديمغرافية والاجتماعية والحضارية والفكرية"[32]. فلقد شكّل تحديد حجم ذلك المُجتمع عقبة حقيقية في وجهنا ونحن بالميدان، فالإحصاءات حول الموضوع غير مُتوفرة والسِّجلات التّي كان من المفروض أن تُفيدنا في هذا الأمر حالها بين مُمزق[33] وضائع، وعليه فقد قصدنا الديوان الوطني للإحصائيات L'ONS –ملحق قسنطينة أملا في الحُصول على إحصاءات دقيقة، لكننا لم نجد للأسف أرقاما تخصّ كلّ السنوات المعنية بالبحث...

وهو ما ألزمنا الرجوع إلى مصلحة البلدية، حيث حاولنا وضع السِّجلات الأخيرة من كلِّ سنة في حال تسمح بالتعامل معها[34]، كما سعينا إلى البحث عن ما كان ضائعا منها مُتنقلين بين جميع المكاتب[35]. و يرجع تركيزنا على آخر سجل من كلِّ سنة؛ إلى كونه الوحيد الذي يضم العقود الأخيرة التّي يُفيدنا رقم تسجيلها في التعرف على العدد الإجمالي للعقود المُسّجلة. ولقد طرأ على الرقم النهائي لمجموع تلك العقود الكثير من التعديلات؛ وذلك لأنّ أواخر معظم السجلات –المُخمن أنها الأخيرة– لم تكن تحو أيّة علامة تؤكد ذلك، وهو ما

[31] للإشارة نذكر أنّ التقسيم الحالي لمدينة قسنطينة قد ضمّ 12 بلدية توزعت على 06 دوائر كالتالي: دائرة قسنطينة، وضمّت بلدية (قسنطينة)، دائرة الخروب وضمّت بلديات (الخروب، أولاد رحمون، عين سمارة)، دائرة زيغود يوسف وضمّت (زيغود يوسف، بني حميدان)، دائرة عين عبيد وضمّت (عين عبيد وابن باديس)، دائرة حامة بوزيان وضمّت (حامة بوزيان، ديدوش مراد)، ودائرة ابن زياد وضمّت (ابن زياد ومسعود بوجريو).

[32] الحسن، احسان محمد، *الأسس العلمية لمناهج البحث الإجتماعي*، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1982، الطبعة الأولى، ص. 19، بتصرف.

[33] لم تحو بعض السجلات حتىّ جدولا ألفبائيا للمواليد (table alphabétique des naissances).

[34] وذلك بإلصاق أوراقها وإعادة ترتيبها..

[35] وهو ما أثار حساسية بعض الموظفين! إذ عادة ما يقوم هؤلاء بتخبئة السِّجلات الضامة لشهادات ميلاد معارفهم حتّى تبلغ عددا معيّنا، وذلك بغرض تقديمها دفعة واحدة إلى المسئول المُكلّف بالمصادقة حتّى لا ينتبه أو لا يستكثر المرّات التّي يقوم فيها الموظف بتقديم خدمة لأحد معارفه. و للإشارة فقد أجمع الموظفون على تسمية استخراج شهادة ميلاد لأحد المعارف **بالرُّكنية**.

دفعنا إلى الاعتماد غير ذي مرّة على تصريحات بعض المُوظفين أو المسؤولين بالمصلحة والذين أجمعوا –للأسف– على تضارب أقوالهم مما اضطرنا إلى إعادة النظر والبحث في كلّ مرّة.

تمكّنا أخيرا وبعد كثير من الجُهد والوقت الضائع أن نتوصل إلى عرض إحصائي (نهائي) لمجتمع بحثنا، نستطيع الانطلاق منه لتصميم عيِّنة الدراسة: 344 سجل ضمّ 154877 شهادة ميلاد تضمنت أزيد من 464631 اسما شخصيا للمواليد الجُدد –الذين شكّلوا محور اهتمامنا– ولآبائهم وأمهاتهم وأحيانا حتّى لأجدادهم ومن شهد ولادتهم.

1. طرق بنـــاء العيِّنة:

و بما أنّ مجتمع البحث كان واسعا جدا ومن الصعب بمكان لأي باحث أن يلّم به بمفرده، ارتأينا بناء عينة صادقة ومُمثلة له. ولبلوغ ذلك اختبرنا طرائق عدّة من بينها طريقة الاختيار العشوائي التّي زواجنا فيها بين مبدأ استخراج النسبة المئوية وأسلوب الاختيار العشوائي[36]. لكننا ولعدّة اعتبارات منهجية[37] لم نستطع الاستمرار في العمل بهذه الطريقة فتخلينا عنها، مُحاولين إتباع عدّة طرق أخرى من بينها طريقة العيِّنة الطبقية المُتزنة والتِّي نحن بصدد بيانها.

1.1. طريقة العيِّنة الطبقية المتزنة[38] :

وفيها سعينا قدر الإمكان إلى بناء عيِّنة مُمثِّلة لكلِّ العقود الواردة على مدار كلِّ السنة بصفة مُتوازنة سواء بالنسبة لجنس المواليد (ذكر–أنثى)، أو بالنسبة للشهور المُتّضمنة لوثائق أو عقود الميلاد (12 شهرا).

---

[36] حيث اعتبرنا كلّ سنة بمثابة مجتمع أصلي يجب استخراج عيّنته المُثلة، ولبلوغ ذلك قمنا باستخراج النسبة المئوية لكلِّ سنة، ولقد أسفرت النتائج المُتحصّل عليها عن حجم عام للعيِّنة المختارة قُدر بـ1000 وثيقة ميلاد. لكن بعد تحديدنا للعيِّنة ووجهنا بمشكلة كيفية اختيار عقود الميلاد المُقرّر مُعالجتها من كلِّ سنة، وبعد مُحاولات مُتكرِّرة قرّرنا اعتماد جدول الأعداء العشوائية الذي يُساوي بين احتمالات الاختيار؛ لقيامه على فكرة الصدفة العشوائية أو القرعة مُتبعين خطوات الطريقة السريعة والتِّي يكون فيها المدى واسعا، وهو ما يعني تحديد مسافة الاختيار (م أ)...

[37] أهمها: أننا لم نستطع الحصول دوما على إطار عام لعيِّنتنا بسبب تمزق أواخر معظم السِّجلات، إضافة إلى أنّ نسبة مشاركة الإناث والذكور في بناء العيِّنة المُختارة –لكلٍّ سنة– لم تكن مُتوازنة، وهو ما لم يتوافق وهدف بحثنا القاضي برصد الدلالة إحصائيا للإناث والذكور على حدٍّ سواء.

[38] كان للأستاذ «فريد بن رمضان» (أستاذ بجامعة مستغانم، وباحث متعاقد مع الـCRASC)، دورا كبيرا في اعتمادنا لهذه الطريقة.

وبما أنّ بداية كلِّ شهر هي نهاية الشهر الذي سبقه، فقد تعمّدنا خلال تصميمنا للعيِّنة رصد أول 50 وثيقة ميلاد من بداية كلِّ سنة بصفة تتابعية ومُناصفة بين الذكور والإناث: (25 +25)؛ مما يعني أننا عالجنا 600 وثيقة ميلاد في كلِّ سنة: 300 وثيقة للمواليد الإناث + 300 وثيقة للمواليد الذكور. أسفرت مُقاربتنا الإحصائية هذه عن عيِّنة واضحة المعالم: 7200 وثيقة ميلاد للمواليد الجُدد: (3600 وثيقة للمواليد الذكور+ 3600 وثيقة للمواليد الإناث) مُوزعة على117 سجل على مدار **اثنتي عشرة سنة** وهو ما شكّل مُدونة البحث.

ولأننا أردنا لعيِّنة بحثنا أن تكون مُمثلة لمجموع الأسماء الواردة بسنوات الدراسة، فلقد تعاملنا تقريبا مع جلِّ السجلات الواردة في تلك السنوات، والجدول التالي مُضمّن بعرض إحصائي عن ذلك:

جدول رقم (01): « عرض إحصائي للسِّجلات المُعالجة »

	الجيل الأول	الجيل الثاني	الجيل الثالث	الاستقلال الوطني		الجيل الرابع	سنوات التفاعل الجماهيري					الجيل الخامس	
السنوات	**1901**	**1926**	**1951**	**1962**	**1963**	**1976**	**1988**	**1989**	**1990**	**1991**	**1992**	**2001**	المجموع
العدد الإجمالي للسجلات	02	02	03	12	11	31	47	49	50	42	49	46	**344**
عدد السِّجلات المُعالجة	02	02	03	08	09	13	12	13	14	14	15	12	**117**

وبالنسبة لطبيعة السِّجلات المُستخدمة فلقد تمّ لنا التعامل مع 113 سجلا أصليا و4 سجلات غير أصلية، وأمّا بالنسبة للغتها فلقد عالجنا 88 سجلا مُقيّدا بالعربية و29 سجلا مُدونا بالفرنسية.

لقد هَدَفْنا بهذه الطريقة معرفة التحوُّلات التاريخية للاسم من خلال مسار انتشاره المُستنبط من درجة تواتره، وذلك عن طريق استقراء الدلالة إحصائيا حيث شكَّلت لنا كلُّ 300 اسم: 300 وحدة (Unité). حيث سعينا إلى استخراج السِّجلات (أو المجالات) الدلالية (Les Registres Sémantiques) للنظام التسموي القسنطيني من خلال:

❖ معرفة شعبية الاسم الواحد باستقراء نسبة وُرُودِه في كلِّ الـ 300 وحدة[39] تسموية.

❖ استقراء النسب العامة للأسماء وفقا للمراحل الزمنية والتاريخية المُختلفة عن طريق رصد تواتر الاستعمال (Fréquence d'emploi) حسب الجنس[40].

V. مسيرة البحث، رهان وتحدِّي!

تتخللُ مسيرة أيّ بحث علمي صُعوبات تُواجه الباحث وتزيدُ من عزمه وإصراره على المُواصلة، لكن قد يحدث أحيانا أن يتفاقم حجم تلك الصعوبات فينقلبُ دورها من خُصوصية يمتاز بها كلّ بحث علمي جاد إلى عقبة حقيقية تقف في وجه الباحث؛ لتستنزفُ من وقته وجُهده الشيء الكثير، ولتدفع به في أكثر من مرّة إلى إعادة صياغة أشكلة موضوعه، وإلى إعادة النظر في مادة بحثه من فصول وأدوات و...

كثيرة هي الصُعوبات التِّي اعترضتنا، لكننا لن نشير هُنا إلاّ لتلك التِّي أسهمت في وضع نقطة تحول أساسية في مسار البحث، وفي إعادة بلورة صياغته.

1. *فراغ بيبليوغرافي رهيب؟!*

شكّلت نُدرة المراجع المُتّعلقة بالأونوماستيك والبحث الأنثروبونيمي أولى المعوقات؛ حيث صُدمنا بفراغ مكتبات قسنطينة الجامعية والخاصّة من المراجع الخاصّة بالموضوع، عدا اليسير منها الذي لا يمس في مُجمله بحثنا، و لو بجزئية.

لقد كانت الانطلاقة بكتابين و مذكرة وأطروحة ومقالين: أمّا الكتاب الأول فكان لج. سيبلي[41] وفيه قدّمت المُؤلِّفة مُحاولة لدراسة اسم العلم العربي، وأمّا الكتاب الثاني فكان لمصطفى الأشرف[42]، وفيه خصّص المُؤلِّف فصلا كاملا أسماه

---

[39] بطبيعة الحال تكون الـ300 وحدة «ذكروية» في حالة الأسماء الذكروية، وتكون «أنثوية» في حالة الأسماء الأنثوية.

[40] بمعنى قياس تطور انتشار الأسماء الذكروية والأنثوية كلٌّ على حدى وفي كلِّ 3600 وحدة تسموية.

[41] Sublet, Jacqueline, *Le Voile du Nom, Essai sur le nom propre arabe*, Paris, P U F, 1991.

[42] Lacheraf, Mostafa, *Des noms et des Lieux, mémoires d'une Algérie oubliée*, Alger, éd. Casbah, 1998.

أعلام وبقاع[43] للحديث عن الاسم وفعل التسمية في بعض الفضاءات الجزائرية. وأمّا المذكرة فكانت لآلان رومي[44] وخصّت الجانب التوبونيمي من البحث الأونوماستيكي. وأمّا الأطروحة فكانت لف–ز. قشي[45] التّي خصّصت في خضم حديثها عن التركيبة السكانية لقسنطينة ست عشرة صفحة[46] للحديث عن الاسم الشخصي بصفة مُباشرة. وأمّا المقالين[47] فقد خصّا كليهما التوبونيمية، حيث كان الأول[48] لباحث تاريخي من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، في حين كان الثاني[49] لباحث من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

أمام هذا الفراغ البيبليوغرافي الرهيب اتصلنا بالـ CRASC بوهران فلم يُسفر بحثنا إلاّ عن كتابين: أولها للباحث التوبونيمي الجزائري فضيل شريقان[50] الذي تطّرق لحالة الأسماء المُركبة في التوبونيمية الجزائرية للبقاع أو الأمكنة المُستكنات، وثانيهما لـس. كريبك[51] الذي قارب موضوع التسمية فلسفيا.

---

[43] وهو الفصل الذي أخذ الكتاب اسمه.

[44] Romey, Alain, *Histoire, toponymie et tradition orale d'une oasis arabo–berbère: N'GOUSSA (Wilaya des oasis – Algérie)*, Sorbonne, Ecole pratique des Hautes études VI^{e} Section-Sciences économiques et sociales, Centre d'études maghrébines, 1973 –74, sous la direction de Germaine Tillon.

[45] قشي، فاطمة الزهراء، *قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن* 19، رسالة دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1998، تحت إشراف الدكتور محمد الهادي الشريف.

[46] م . ن ص. ص. (171 - 187)

[47] حريّ بنا هنا أن نُنَوه بأنّ الأستاذة المشرفة (ف–ز. قشي) هي من تفضلت بإعارتنا هذين المقالين إلى جانب كتاب "ج. سيبلي".

[48] بوكاري، أحمد، «الأعلام الجغرافية كمصدر من المصادر الحضارية»، في *الاسم الجغرافي: تراث وتواصل*، أعمال الندوة الوطنية الاولى للأعلام الجغرافية (أيام 15 ،16 و 17 أبريل 1992)، مطبعة فضالة–المحمدية (المغرب)، أكتوبر، 1994.

[49] عياد، مصطفى، «العام والخاص في التسمية المواقعية»، في *الاسم الجغرافي: تراث وتواصل*، أعمال الندوة الوطنية الاولى للأعلام الجغرافية (أيام 15 ،16 و17 أبريل 1992)، مطبعة فضالة–المحمدية (المغرب)، أكتوبر، 1994.

[50] Chériguen, Foudil, *Toponymie algérienne des Lieux habités: (Les noms composés)*, Alger, Epigraphe, 1993.

[51] Kripke, Saul, *La logique des noms propres (Naming an necessity)*, traduit de l'américain par Pierre Jacob et François Reconati, Paris, Les éditions de Minuit, 1982, p.96

كدنا نعدلُ عن موضوع بحثنا، لولا الزيارة العلمية (Stage) المنظّمة من قبل الـ CRASC لدُفعتنا إلى فرنسا[52]، والتِّي أعادت إلينا الكثير من الأمل حيث تمكّنّا من نسخ وابتياع العديد من المراجع المُتعلِّقة بموضوع الدراسة، ولولا المُشرف المُساعد الذي لم يكتف بتزويدنا بمراجع قيِّمة صبَّت في صُلب موضوع البحث[53] فحسب، بل لقد مكّننا أيضا من حضور بعض المُلتقيات حول البحث الأونوماستيكي أسهمت فعلا في إثراء معارفنا حول هذا المبحث المعرفي[54].

2. من الفراغ البيبليوغرافي إلى اكتشاف عالم الترجمة!

مثلما استغرق تأمين المراجع الكثير من الوقت، استغرق التعامل معها بالصيغة المطلوبة وقتا ليس بالقليل كذلك، ذلك أنّ كلّ المراجع التّي عالجت الموضوع بصفة مباشرة كانت باللّغة الفرنسية؛ فعلم الأونوماستيك علم فتي لم ترس بعد جذوره بعمق في البلاد العربية ولا سيّما في الجزائر.و قد أدخلنا هذا الأمر في متاهات كبيرة تعلّقت بالترجمة وبإيجاد المُقابل العربي الدقيق لما تم اعتماده من

[52] خلال الفترة المُمتدة من 14-10-2001 وإلى غاية 02 -11-2001.

[53] فهو من القلائل الذين اهتموا بالبحث الأونوماستيكي في الجزائر، حيث يترّأس مشروع بحث بالـCRASC موسوم بـ: «التسميات والتصورات العقلية الأونوماستيكية (التوبونيمية والأنثروبونيمية) بالجزائر» Dénomination et représentation mentales Onomastique (toponymique et anthroponymique) en Algérie»، وهو المشروع الذي ضمَّهُ قسم بحث عُني بـ«المخيال والمُمَارسات الرمزية في المغرب العربي» «Imaginaires et pratiques signifiantes au Maghreb». ولا يفوتنا أن نسجل هنا بأننا نُفضل كمقابل للاصطلاح الفرنسي (pratiques signifiantes) الترجمة: المُمَارسات الدلالية بدلا من المُمَارسات الرمزية.

[54] تمّ الملتقى الأول بالـcrasc في 16 و17 أفريل 2002 ودار حول:

Dénomination et représentation mentales Onomastique (toponymique et anthroponymique) en Algérie». أما الثاني فتمّ بجامعة مستغانم في 18 و19 مارس 2003 وفيه أتيحت لنا الفرصة لتقديم مُداخلة مُتواضعة حول الأسماء في قسنطينة بين بدايتي القرن الـ19 (1901) والقرن الـ21 (2001) امتحنا فيها الإشكالية والنتائج الأولية:

«Des noms et…des noms Etat civil et anthroponymie en Algérie, Univ. Mostaganem, Faculté des lettres et des Arts, Projet –CRASC Oran, Ministère de l'Intérieur et des Collectivités Locales du Haut Commissariat à l'Amazighité, Maison de la Culture.»

وأمّا الثالث فانعقد بالعاصمة وفيه زاد احتكاكنا بالباحثين المهتمين بالتوبونيمية بصفة خاصة:

«Programme de la rencontre scientifique sur les noms des lieux en Algérie », Ministère de la Défense Nationale, Conseil National de l'Information Géographique Centres de Recherches Préhistoriques, Anthropologiques et Historiques (C.N.R.P.A.H), Alger le 02 et 03 juin 2003.

قبل الباحثين[55] من مصطلحات ومفاهيم. وعليه يُمكننا القول بأننا نحثنا البحث نحثا، فلم يوجد إلاّ قلائل يعدُّون على الأصابع ممن تعرّضوا للموضوع بالبحث خاصة باللُّغة العربية.

3. ميدان الدراسة، حقل غير مُمّهد للبحث العلمي!

أمّا أثناء جَمْعِنا لمادة البحث بمصلحة الحالة المدنية، فقد وُضِعْنَا أمام تحدِّيات من نوع آخر: ابتدأت هذه التحديات برحلة الحصول على إذن بالموافقة للبحث في أرشيف المصلحة المعنية. لقد انتظرنا طويلا كما ترددنا كثيرا على مكتب المسئول عن الأمر[56] حتّى سُلِّم لنا الإذن الذي توجّهنا **فور الحصول عليه** إلى المصلحة، وهناك صُدِمْنا بحالة التلف الكبيرة التِّي وجدنا عليها معظم السِّجلات موضوع البحث، الأمر الذي اضطرنا إلى توجيه طلب لمحكمة قسنطينةٍ لأخذ إذن بتصفح الأرشيف التابع لها، وحتَى يومنا هذا لم نحصل على رد بالموافقة أو حتَّى بالرفض، كلُّ ما حصلنا عليه كان الرقم[57] الذي وُجِّه به الطلب إلى وزارة العدل، حيث طُلِب منا مُراسلة الوزارة بصفة شخصية!

أمام هذا الوضع لم يتبق أمامنا من سبيل سوى مُحاولة التكيُّف مع الأمر، والعمل على وضع السِّجلات في حال تسمح باستخراج العيِّنة المقصودة بإمكانيات وجهد ذاتيين. أسهمت هذه الوضعية في ضياع الكثير من الوقت خاصّة وأنَّ الظروف التِّي تمّ فيها جمع المادة البحثية لم تكن مساعدة إطلاقا: لقد تمَّ لنا العمل على طاولة بيضاوية كبيرة موضوعة في رواق طويل نوعا ما مُخصّصة **رسميا** للعمل الجماعي[58]، **وعملياً** للحديث وفض النزاعات كونها شكّلت مقصداً لكلِّ صاحب مشكلة أو هاربٍ من ضغط مسئول، وهو ما كان يتسبب غالبا في حدوث ضجة كبيرة يتفاقم صداها كلما حَدَثت مُواجهةٌ بين الموظفات والمسئول عليهن، أو كلما ارتأى المهندسون المسئولون على قاعة المعلوماتية المُجَاورة رفع صوت الموسيقى[59].

---

[55] الذين كان جُلّهم فرانكوفونيين.

[56] والذي لم تتسن لنا مُقابلته إلاّ بعد وقت طويل حيث لم تكن مُداومته يومية بمكتبه، لاشتغاله بالتدريس حسب ما أفادتنا سكرتيرته الخاصّة.

[57] [طلب تحت رقم (1558 ب 10 / 2002) بتاريخ 2002/05/21].

[58] غالبا ما تقوم به سبع موظفات يزيد عددهن أحيانا إذا كان العمل مُستعجلا.

[59] حيث تزامنت فترة جمعنا لمادة البحث والفترة التِّي قامت فيها مصالح البلدية بإدخال المعلوماتية على هياكلها...

شكّلت حاجة المُوظفين الدائمة للسجلات عائقا آخر حال دون السرعة في جمع المادة، ولقد برزت تلك الحاجة في أمرين اثنين: تمثّل أولهما في حاجة مهنية رسمية انحصرت في استخراج شهادات ميلاد أصلية للمواطنين[60]، أمّا الثاني فقد ترجم حاجة شخصية ذاتية إذ تَمَحور حول تقديم خدمة شخصية (**رُكْنِيَة**) لأحد المعارف[61].

بعد مرحلة جمع المعطيات الخام والتّي استغرقت لوحدها أزيد من 11 شهرا[62]، توجّب علينا إدخال تلك المعطيات الخام في الحاسوب قصد مُعالجتها إحصائيا لاستخراج السِّجلات الدلالية المرجوة، وقد أخذ منا ذلك أكثر من 5 أشهر حيث تعرضت الملفات (Les Fichiers) التِّي أفرغنا فيها المعلومات أكثر من مرّة للتلف لأسباب مختلفة[63].

على الرغم من تعاملنا مع أستاذ مُختص في الإعلام الآلي، منذ أول يوم بدأنا فيه إدخال المُعطيات، حتّى يتكفّل لنا بصُنع برنامج أو نظام (Logiciel) خاص لتسريع إدخال مُعطيات البحث ومُعالجتها، إلاّ أنه قد واجهتنا صعوبات تقنية لا حصر لها فطبيعة مُعطيات المُدونة في حدِّ ذاتها تطلّبت برمجة مُعقّدة نظرا لنسخها باللُّغتين العربية والفرنسية وبطريقة غير مُتناسقة. ففي حين كُتب القسم الذي ضمّ الفترة (من 1901 وحتّى 1963) باللُّغة الفرنسية فقط، كُتب القسم الضام للفترة (من 1976 وحتّى 2001) باللُّغتين العربية والفرنسية، وهُو ما تطلّب مُعالجة إحصائية خاصّة لم نبلغها إلاّ بعد قيامنا بعدّة تعديلات على تقنيات إدخال مُعطيات المُدونة، وذلك لأن الأمر تطلّب مُكافئة بين مُختلف المعلومات

[60] القسنطينيين مولدا، والقاطنين بقسنطينة أو خارجها.

[61] لقد تسبّب لنا هذا الأمر في استنزافٍ كبير للوقت، فمثلا استغرق منا البحث عن أحد السِّجلات في إحدى المرّات أكثر من ساعتين أضفنا اليهما ما ماثلهما حتّى نضع السجل في حال تسمح برصد المُعطيات التّي يحتاجها البحث.

[62] على الرغم من أنّ العمل كان يتّم يوميا من الثامنة صباحا وإلى الرابعة والنصف مساءا، وحتّى في أيام العطل التّي كان يتوجب فيها على بعض الموظفين الحضور لإتمام بعض الأعمال (كالانتخابات والإحصاءات) حيث كنا ننتهز الفرصة للحضور ولإتمام عملنا...

[63] من بينها: تعرُض الحاسوب إلى العديد من الأعطال التقنية التّي تطلبت إعادة برمجته أكثر من مرّة.

فهناك من الأسماء مثلا التي مِن المفروض أنّها تنتمي إلى السنوات المُتّضمنة لهذا الجزء، لكنّ عقودها جاءت مُغايرة لنظيراتها[64]...

وعلى الرغم من عديد المُحاولات التِّي قمنا بها، إلاّ أننا لم نتمكن من بُلوغ مُعالجة إحصائية مُوحّدة بالنسبة للنموذج التسموي الواحد؛ حيث اعتبر جهاز الحاسوب الأشخاص الحاملين لنفس الاسم عدّة أشخاص مُختلفين. كما وضعتنا الأسماء المُركبة أمام إشكالية مُضاعفة؛ وذلك لأنّ طريقة كتابتها لم تختلف من سنة إلى أخرى فقط، ولكنها اختلفت حتّى داخل السنة الواحدة، مما استدعى إعادة مُعالجتها بالطريقة الحسابية التقليدية مرّة أخرى بُغية إنجاز السِّجلات الدلالية المرجوة....

بسبب طبيعة الموضوع في حدِّ ذاته والتي تتطلب وقتا وجُهدا كبيرين، وأمام كل ما سبق ذكره وجدنا أنفسنا في الأخير مُرغمين على القبول بمُعالجة جُزء يسير فقط من مدونة البحث، وهو ما لم يستجب –للأسف– مع ما عزمنا إنجازه وقرّرنا القيام به في بداية رحلة بحثنا[65].

VI. تجزئة البحث:

لقد حاولنا قدر الإمكان الالتزام بالصيغة الجديدة المُعتمدة مُؤخرا في إنجاز البحوث العلمية والتِّي تقتضي حجماً وزمناً مُعيّنين للإنجاز لا ينبغي تجاوُزهما، لذلك جاءت مادّة البحث مُوزعة على مُقدمة، تناولنا فيها نوع الموضوع وأهميته والدوافع التِّي من أجلها اخترناه دون غيره، بالإضافة إلى ذكر الخُطّة المُفصّلة للعمل. و ستة فُصول، مزجنا فيها بين المادة النظرية والميدانية للبحث. وخاتمة، ذيلنا بها مجموع الفُصول السابقة حيث لخّصنا فيها أهم النتّائج المُتّوصل إليها من خلال تتبع حيثيات البحث وسبر أغوار كُلِّ جزئية فيه، ولم تكن الخاتمة بمثابة حُكم معياري؛ بالقدر الذي كانت فيه الأفكار المطروحة فيها مفتاحا لمن

---

[64] بغض النظر عن سنة 2001، يُمكننا القول بأنّ العُقود التِّي تضمنتها سنوات هذا القسم لم تأت في مُجملها على صيغة كتابية واحدة، فمثلا صادفنا عقودا كُتبت فيها المعلومات –المُتّعلقة بالأسماء الشخصية خاصّة– باللّغتين العربية والفرنسية، مثلما صادفنا عقودا أخرى قُيِّدت فيها المعلومات باللّغة العربية فقط، وهو ما حدث في سنة 1976 والتِّي لم ينطلق التعريب بها حتّى شهر جوان.

[65] حيث حاولنا مُعالجة كلّ الأسماء الشخصية المُتّضمنة في وثيقة الميلاد مع محاولة عقد مقارنة بينها على أساس: الأجيال، الانتماء الجغرافي، الانتماء النَّسَبي...

يُمكنه إعادة قراءة الواقع السوسيوثقافي في المدينة التي شكّلت أُنموذجا للذاكرة الجمعية للموروث الثقافي والاجتماعي في الجزائر. وجُملة من الملاحق والفهارس الفنية، وقد ابتدأنا كلّ فصل بمدخل توضيحي لما سيأتي تفصيله في مباحث الفصل الواحد، وأعقبنا ذلك بخُلاصة جُزئية حَوَت النتائج المُتّوصل إليها في كلّ فصل.

VII. نتائج البحث[66]، الاسم الشخصي: شاهد للقرن[67]

إنّ رصدنا لتطور الاسم الشخصي في قسنطينة إنّما هو رصد لتطور الذات القسنطينية في جميع تمثُّلاتها؛ إذ يُوضِّح الموروث الأونوماستيكي سجِّلات دلالية مضبوطة التصنيف، ما تفتأ تتطور بتغيُّر مبادئ التصنيف أو تطورها مع مرور الزمن، فالفعل التسموي حدث أنثروبولوجي مشحون بالعديد من الدلالات التِّي تشهدُ على الحدث، وتُفصح عن الاعتقاد السائد، وتُعبِّر عن الثقافة المحلية الموروثة، وتكشفُ عن الهُوية الثقافية وحتّى العقلية الجمعية المُشتركة.

1. *عندما كان الاسم الشخصي محورا للنظام الأنثروبونيمي!*

لقد لعب الاسم الشخصي بوصفه فاعلا اجتماعيا، دورا كبيرا في التأثير على الحياة السوسيونفسية للأفراد والجماعات، لدرجة توصل معها إلى فرض العديد من الالتزامات أو المحظورات الاجتماعية على السَمِيِّ. كما لعب بوصفه أحد أهم عناصر الهوية الأنوماستيكية[68] الجزائرية قديما، دورا محوريا في هيكلة النظام الأنثروبونيمي الجزائري (القديم)، وقد أظهر تحليلنا لأهم ملامح المشهد الأونوماستيكي في قسنطينة دوره ذاك، حيث أبرز المكانة الأساسية التِّي كان

---

[66] سوف لن نشير هنا إلاّ لبعض الخطوط العريضة لنتائج بحثنا، لأنّه وبغض النظر عن الماجستير فلقد شكّلت هذه النتائج موضوعا لمداخلات ومقالات أخرى: هدى، جباس، «الأسماء في قسنطينة بين سنتي 1901- 2001، معالجة دلالية» ، في *اسماء.. واسماء. دراسة الأعلام والحالة المدنية في الجزائر*»، منسق: فريد بن رمضان، منشورات CRASC، 2005؛ هدى، جباس، «التسمية في قسنطينة: بين ترسيخ الماضي ومُواكبة الحاضر»، مرجع سابق؛ هدى، جباس، «الاسم الشخصي: تكريس لتراث اجتماعي أم تفرد لهوية ثقافية»، مرجع سابق.

[67] لقد استوحينا هذا العنوان من كتاب مالك بن نبي: *مذكرات شاهد للقرن*، دمشق–سورية، دار الفكر، 1970، ط 1. وذلك لأن مدونة بحثنا غطّت قرنا من الزمن.

[68] وهي تلتقي في كثير منها مع تلك التي ميّزت الهوية الأونوماستيكية العربية بصفة عامة.

يحتلها بين مجموع التراكمات التسموية التّي أسهمت في تكوين الهُوية الأونوماستيكية الجزائرية وقتذاك. كما أظهر أيضا بأنّ النظامٍ الأنثروبونيمي الجزائري لم يكن نظاما عائليا ولا حتّى لقبيا؛ فهو لم يكن ضاماً لجميع أفراد العائلة تحت إسم واحد ولا حتّى مورثا من جيل إلى جيل آخر، فالابن لم يكن يحمل من التراكمات التسموية لأسلافه سوى أسمائهم الشخصية والتّي كانت مُرتكز النظام التسموي التقليدي.

لكن هذا النظام لم يتناسب والسياسة الإدماجية الفرنسية خاصّة على الصعيد الإداري فسعت إلى تغييره بما يُوافق نُظُمها الأنثروبونيمية الخاصّة[69]، كما عمدت إلى تفكيك النسب العائلي للجزائري في حالته المدنية، وإلى التشويه الدلالي لمختلف أسماء العلم، مما أوْرَثَ الجزائريين هُوية أونوماستيكية مُشّوهة دلاليا (على صعيد المعنى) وخطِّيا (على صعيد الكتابة أو النسخ). ولقد زاد من تشويه تلك الهُوية سياسة اللامبالاة التّي انتهجتها الإدارة الجزائرية، ناهيك عن قلَّة الخبرة الإدارية التّي تُعاني منها مصالح حالتها المدنية، وقلَّة وعي مُوظفيها بأهمية الوثائق في حفظ تُراثنا الثقافي وحماية هُويتنا الأونوماستيكية من خطر التشويه الدلالي الذي ما يفتأ يُهدد معالمها بالتشويه والزوال، وهو ما لمسناه بمصلحة بلدية قسنطينة.

وعلى الرغم من تلك السياسة التشويهية الفرنسية، إلاَّ أنّه قد تّبقت بعضُ مكانةٍ للاسم الشخصي في النظام الأنثروبونيمي الجزائري (القسنطيني)، عزّزها تواجده مُفردا أو مُصّدرا بلفظ «بن» في الأسماء العائلية للعائلات القسنطينية العريقة. وبإمكان المتصفح لسجلات الشجرة النَسَبية العائلية في قسنطينة إحصاء أكثر من 126 اسماً عائلياً مركباً تركيباً إضافياً (بن+اسم شخصي): بن شريف،

[69] من خلال: قانون 23 جويلية 1873، المُنظم للملكية الفردية في الجزائر وقانون 23 مارس 1882، الناص على تأسيس الحالة المدنية للأهالي المسلمين الجزائريين. وللمزيد حول الموضوع، يُنظر:
- Grangaud, Isabelle, *La ville Imprenable, une histoire sociale de Constantine au 18e Siècles*, Paris, Editions de l'école de Hautes Etudes en Sciences Sociales, 2002 ; Ageron, Charles-Robert, *Les Algériens musulmans et la France (1871-1919)*, Tome Premier, Alger, Presses Universitaires de France, 1987; R.F.A, Bulletin officiel des actes, «Loi du 23 mars 1882» n° 111, T. XXIIe, vingt-deuxième année, 1882, imprimerie de l'association ouvrière, Alger, 1883; Parzymie, Anna, *Anthroponymie algérienne. Noms de familles modernes d'origine turque*, Varsovie, éditions scientifiques de Pologne, 1985.

بن باديس، بن شعبان، بن خليل... الخ، فضلا عن العديد من الأسماء الشخصية المُفردة: خوجة، محمد، حمادي، بوجمعة، شهر الدين...

2. مرجعية الانتقاء، بين تسجيل الاختلاف وإثبات شرعية الانتماء

لقد جاءت نتائج بحثنا مُؤكِّدة للفرضيات التِّي انطلقنا منها، حيث خلصنا إلى أنّ كُلُّ شخص يُمارسُ فعل التسمية وفقا لعدّة عوامل: تراثية، نفسية، ثقافية، وسوسيو-تاريخية. تُحدِّد هيمنة إحدى تلك العوامل نوع المجال الدلالي السائد في نظام التسمية؛ وذلك لأنّ مرجعية الانتقاء تستند إلى نمط العامل المُوجِّه للشُحنة التعبيرية السائدة في الوحدة التسموية ذاتها.

- فعندما تُوجِّه العوامل التُراثية المُمارسات التسموية بين الأشخاص المُنتمين إلى نفس المجال الفضائي فإنّها ستُسفر لا محالة عن نماذج مُتماثلة بينهم؛ ذلك أنّ طبائع وتمثُّلات الأشخاص الذين يَحيوْن مع بعضهم في رُقعة جغرافية واحدة، ستنطبع بنفس السمات والخصائص المُشتركة التِّي ميَّزتهم عن غيرهم بحُكم تعايشهم مع نفس الظروف وتعرُّضهم لنفس المُؤثرات، والأمر نفسه بالنسبة للأشخاص المُنتمين إلى نفس المستوى (الطبقة) الثقافي-الاجتماعي إذ غالبا ما تنطبعُ مُمارساتهم بنفس الميزات والملامح التِّي وحدتهم اجتماعيا مع بعضهم. وعليه يبرز الاسم بمثابة **مفتاح مميِّز** نضعه في يد الطفل ليفتح به أبواب دنياه وهو ينتمي ثقافيا إلى تراث مُعيّن يُدلل عليه اسمه الذي يعكس انتمائه[70] اللُّغوي والجغرافي وحتّى العقائدي. و عن الأسماء التي أسهم التراث الاجتماعي- الثقافي في توجيه نوعية المجالات الدلالية المُعتمدة في اقتنائها، نورد ذكرا لا حصرا:

*الأسماء المعبّئة بإيحاءات دينية: وهي التي تصّدر سجلها الدلالي رأس قائمة الانتقاءات الذكورية والأنثوية، لكن بنسب مُتفاوتة من حيث كثافة الاستعمال (أو تواتر الورود) حيث بلغت عند الذكور ما يُقارب (64 %)، في حين تجاوزت عند الإناث (35 %). وفي الأمر إشارة واضحة إلى تأثير الانتماء إلى الفضاء الاجتماعي الجزائري الذي يتميّز بانتمائه للحضارة والثقافة العربية الإسلامية. ولقد انطوى هذا النوع على العديد من الأصناف التحتية التِّي تصّدرها

[70] أو بالأحرى انتماء أهله الذين منحوه اسمه.

عند الذكور الرسول الكريم باسميه «محمد ـ أحمد»، وكُنيته «بلقاسم»، وبعض صفاته بنسبة قاربت الـ (31 %) من النسبة العامة[71] ، ثم تلته أسماء التعبيد بانتقاء دلالي خاص وبنسبة (21 %)، فأسماء الصحابة والتابعين وألقابهم التي اشتهروا بما يُقارب (16 %)، وأسماء الأنبياء بنسبة (14 %)، ثم الأسماء المركبة من لفظ «دين»، بتردد بلغ (306) اسما، ليتبعها بعد ذلك مباشرة اسم «إسلام» والذي سجل أول ظهور له في الفترة التّي وسمناها بسنوات التفاعل الجماهيري. أمّا عند الإناث فقد تصدّرت أسماء نساء أهل البيت قائمة الاختيارات باعتلاء اسم أصغر بنات الرسول الكريم «فاطمة» رأس القائمة، ليليه مباشرة اسم أمه«آمنة» بصيغ نطقية مختلفة. لكن اسم «مريم» ابنة «عمران» وأخت «هارون» وأم سيِّدنا «عيسى» عليهم السلام قد نجح في أن يحدّ من ذلك التتابع بتردّده تسعين مرّة واحتلاله بذلك للرتبة الثالثة ورودا...

*الأسماء التّي عبّرت عن المعتقد: احتّل سجلها الدلالي الرُتبة الثالثة من حيث كثافة الاستعمال عند الذكور بنسبة بلغت (7,50 %). ولقد تمّ منحه إمّا بقصد التفاؤل للأبناء وهو ما أظهرته الأسماء الذكورية الحسنة الوقع: (مسعود، سرور..) وإمّا بدافع حمايتهم من أذى الأرواح الشريرة أو القوى الخفية المتربصة بكلِّ عزيز أو غال وهو ما أفصحت عنه الأسماء غير المُستساغة أو ذات الوقع القبيح: (مْطَيَّشْ، الخَامَّجْ...)، وإمّا للتعبير عن صدمة أحدثتها ولادتهم وهو ما ترجمته الأسماء الأنثوية خاصة من قبيل اسم بركاهم، ذلك الاسم المُدلِّل على الإقصاء الاجتماعي للجنس الأنثوي عند بعض أهل قسنطينة، حيث لا يُطلق من قبل الوالدين إلاّ للتعبير عن رغبة أو طلب للتوقف عن إنجاب البنات.

*الأسماء التِّي عكست ارتباطا قويّا مع الطبيعة وبعض مظاهرها: على الرغم من وجود توافق في التصنيف الدلالي لهذا السِّجل بين الذكور والإناث إلا أننا لمسنا تناقضا في المُميِّزات العامة والتركيب البنائي بين الجنسين؛ ففي حين وجدناه عند الذكور وقد احتّل الرتبة الثامنة حيث مثّل من الطبيعة سِّباعها وجوارحها من الحيوان أو الطير: (هيثم، أسامة، شاهين...)، وجدناه عند الإناث في المرتبة الرابعة بنسبة قدِّرت بـ (10 %)، ومليئا بالعبق والجمال والروائح الطيِّبة: (وردة، وْرَيْدَة، وْرِيدة، ياسمين، ياسمينة، زهرة، زْهَيْرَة، فلة، نسرين،

---

[71] للأسماء الذكورية ذات الإيحاءات الدينية.

نسيمة، نرجس، عبير، العطراء، سوسن، نسيمة، نرجس، العطراء، رشا، ريم، كروان، ريمة، مها، غزلان، كوكب، سحر، قمرة، هند، هنيدة، ندى، شروق، ثلجة، نجمة، شمسة...).

*بعض الأسماء المُتداولة بين فئة البلدية أو بين من تماهَى معها وحاكاها، كالأسماء ذات السكون التِّي نجحت في أن تعكس هاجس الانتماء، حيث ترجم انتشارها انعكاسا لمُحاولة مُحاكاة البَلْدِيَة في طريقة كلامهم أو في كيفية تعامل لِسانهم نُطْقاً مع الأصوات، وذلك لأنهم يُركّزون كثيرا على تلفظ السكون في كلامهم. وعلى الرغم من أنَّ لبعض هاته الأسماء معان مختلفة إلاَّ أنّنا لسنا أنّ السبب الرئيس من انتقاءها كان السكون الذي شجَّع صِيغة النُطق المحلية، ومن هذه الأسماء: فَيْصَلْ الذي سّجلنا أول ظهور له سنة (1962) والذي بيّنت لنا المقابلات التِّي أجريناها حول مرجعية منحه أنه شائع الاستعمال بين البلدية: (أميمة، شُبَيْلَة، رُمَيْسة، هُنَيْدَة، بُثَيْنَة، رُدَيْنة، عُبَيْدة...).

❑ أمّا عندما تتدخل العوامل النفسية في توجيه بعض الخُصوصيات الانتقائية للوظيفة الدلالية للاسم، فإنّها ستعكس خطابا دلاليا خاصّا وهاجساً فرديا لرسم الاختلاف وتسجيل التميُّز والابتكار، وهذا ما أبرزته السجلات الدلالية للأسماء التالي ذكرها:

*الأسماء المُبتكرة: أوضحت مختلف النتائج المُتوصل إليها أنّ الابتكار سمة تسموية قسنطينية، استمرت عبر الزمن وعبّرت بحق عن تطور تاريخي في أشكال التعبير عن السجل الدلالي الواحد، فمثلا لقد تميّزت فترة أواخر الثمانينيات بنسج الكثير من النماذج التسموية التي لم يسبق انتقاؤها قبلا، فأنتج سجل الأسماء ذات الصبغة الدينية أسماء مما ورد ذكره في القرآن الكريم من ألفاظ التنزيل (آية، إسراء، دعاء، لينة، منذر، آلاء..)، وأسماء الجنّة وأنهارها وأبوابها وبعض أهلها (سلسبيل، ريان، فردوس، حور العين..)، وفواتح بعض السور وأسماءها (ياسين، كوثر، طه..)... وأظهر تركيبات تسموية جديدة لم يسبق اعتمادها من قبل كتلك التِّي اقتضت بتوظيف اسم« إسلام» مُفردا ومُعوضا للفظ «دين» عند الذكور (فتح الإسلام، نور الإسلام، نصر الله إسلام..)، أو مُضافا لأحد الأسماء عند الإناث: «أميمة اسلام»! أو تلك التِّي اقتضت بتوظيف بعض أسماء الله الحسنى–التِّي كان استعمالها حِكراً على الذكور– في تسمية الإناث حيث عُوِّض لفظ «عبد» بصفة أو باسم آخر (آية الرحمان، هبة الرحمان،

ابتهال هبة الرحمان، أمة الله، هبة الله...). كما نجح سجل الأسماء الصفات الذي وافق وروده عند الإناث نسبة (23 %) وعند الذكور ما يُقارب (17 %) والذي أظهر قديما أسماء من قبيل: بديعة، جميلة، بهية، ضريفة، زغدة (أي من تملك عيونا ملونة)، رحيمة... في أن يُبرز أشكالا أخرى أكثر ليونة، حملت قيّما جمالية جديدة: لميس، فاتن، ميسون، هيفاء، رنا، دلال، مليسة، دارين... وفي أن يُطوِّر ما كان مُستعملا في الماضي، لكن بصيغ وأشكال جديدة أصبحت معها سميحة «سماح»، صفية «صفا» و«صفاء»، سليمة «سلمى»، رحيمة «رحمة»[72] ، حسينة «حسنى»، حنان «حنين»...

*الأسماء المركبة: جسّد السجل الذي تضمّنها انعكاسا فعليا لتضافر عدّة أذواق في نسج الاسم الواحد أو في انتقاء مختلف أجزائه، كما نجح إلى حد بعيد في أن تعكس جدلية [قديم/حديث] القائمة على احترام القيّم الموروثة عن الآباء والأجداد، والتطلّع في نفس الوقت إلى مُسايرة مُوضة برزت في فترة ما، أو إلى الاستعارة من سجلات دلالية أخرى غير سجلات الأسلاف: (تاج الملاك، تاج الملك، نوال سيرين، رجاء فاني، ريان دورصاف، غادة البتول، لينة قطر الندى، هديل حواء مريم، ميسون نور اليقين، محمد إسلام، أحمد رامي، نورس إكليل الدين، مهيب إياد رستم، فادي بدر الزمان، رائد شهرمان، وسيم تاج الملوك، محمد رسيم، حمني جمال الدين، وسيم محمد العربي، نزيم عبد المولى، وصال نجم الدين...).

*الأسماء الأجنبية: احتّل سِّجلها الدلالي الرُّتبة الخامسة من حيث كثافة الاستعمال عند الإناث بنسبة بلغت (6 %) من النسبة العامة. ولقد عكس رغبة كبيرة في التماهي مع الآخر ومُحاكاة نماذجه، على الرغم من أنّها لم تتوافق في معظم صورها مع النماذج الثقافية الأصلية، والقيّم الاجتماعية والنفسية التِّي طبعت الاختيارات ووجّهتها فيما سبق: (جيهان، دارين، دورصاف، روبيلة، رنيم، أزاد، أناديل، روزا، شانز، سندرة، ميار، ديات، ليندة، طانيسية، مجدولين، ميلاد، رسلان، رستم، سامر، سكندر...)

---

[72] ورحمة هي أيضا زوج النبي: «أيوب» التِّي وقفت معه وآزرته خلال ابتلاءاته.

*الأسماء الغريبة: لم نتمكن من إدماجها في سجل خاص بها، لكننا قدّرنا أنّ العوامل النفسية كانت من أقوى بواعث ظهورها، ومن أمثلتها: (قطاف، صحبي، دمدوم، نحيل، بابا، أوطر، طهوشانة، زرادة، طاطا...).

□ وأمّا عندما تؤثر العوامل الاجتماعية–التاريخية على التمثُّلات الذهنية الاسمية، فإنها تُسهم في هيكلة مُتماثلةٍ للهُوية الأونوماستيكية؛ وذلك عن طريق مُحاكاة أسمائية للفاعلين الاجتماعيين الذين برزوا على ساحة الأحداث على الصعيدين الوطني والدولي، ونجحوا في اكتساب تعاطف وتأييد بعض الأولياء[73] ممن ترجموا شُعورهم في تماثُل أسمائي بينهم[74] وبين أبنائهم الذين تزامنت ولادتهم وسنوات بُروزهم الجماهيري أو حتّى الذين لم تتزامن ولادتهم وسنوات ذلك البُروز. وتلك هي حالة الفاعلين الذين نجحوا في اكتساب مكانة دائمة أو مؤقتة على مرِّ الزمن في نُفوس من مَارَسوا فعل التسمية؛ والتِّي أكّدت في بعض صورها على مبدأ التثاقف (Acculturation) بكلِّ ما انطوى عليه من احتكاك ثقافي بين مُختلف الشعوب، وبكلِّ ما أسفر عنه من استعارات لنماذج ثقافية (Modèles culturels) بين مختلف الحضارات. و من بين الأسماء التِّي جسّدت تأثير تلك العوامل:

*الأسماء الشواهد: لقد جاء هذا السجل عند الذكور في الرتبة الرابعة بنسبة (2,42 %) من النسبة العامة، ولقد نجح في أن يُخلِّد بعض الشخصيات بأسماء مركبة من اسمها ولقبها، وفي ذلك زيادة تأكيد على أنّ المُسّمي يقصد التدليل على شخص بعينه ولا يُريد أن يحدث خلط بينه وبين آخر: الأمير خالد، هواري بومدين، جمال عبد الناصر، أنور السادات، طارق عزيز، صدام حسين.. أمّا عند الإناث فعلى الرغم من أنه لم يحتل رتبة متقدمة إلاّ أنه قد أرّخ لفرحة الاستقلال بأسماء عُبِّئت بالكثير من دلائل النصر وبشائر الحرية (نصيرة، حورية...).

*و يمكن للأسماء التِّي عكست الأيام والمناسبات التِّي وُلد فيها الطفل، أن تندرج تحت هذا الصنف الدلالي أيضا، وذلك لأنّ بها تأريخا لظروف ولادة المولود.

---

[73] أو الأشخاص الذين مارسوا فعل التسمية.

[74] أي بين أولئك الفاعلين.

3. التسمية، من الوظيفة التعبيرية إلى الرسالة التبليغية

لقد أسفرت نتائج المُقابلات التِّي قمنا بها حول الفاعلين في عملية اختيار الاسم الشخصي في الفضاء القسنطيني عن تضافر عدّة عوامل في توجيه عملية الانتقاء[75]، وبالتالي في التأثير على نسج أهم ملامح المخيال التسموي للقسنطينين.

ولقد أظهرت دلالات التعبير التِّي أبرزتها أشكال النِسبة أو أنماطها (Les modes d'attribution)، أسبقية أحد هذه العوامل على غيره.

كما أثبتت نتائج الفرز الإحصائي والدلالي لمدونة بحثنا أيضا، أنّ الاسم الشخصي ما هو إلاّ شكل من أشكال **إحداث بصمات** ذاتية[76] ومُجتمعية في شخص المُسَّمى، فهو لا يُؤرِّخ للحدث الحاصل، ويشهدُ على الاعتقاد السائد، ويُعبِّر عن الثقافة المحلِّية الموروثة، ويكشفُ عن الهُوية الجمعية المُشتركة الخاصّة بالجماعة الاثنية فحسب، بل إنه **فاعل اجتماعي** ذو دور كبير في التأثير على الحياة السوسيونفسية للأفراد والجماعات، **ومرآة عاكسة** للمخيال التسموي الشعبي للفضاء السُوسيولوجي الذي ينتمي إليه صاحب الاسم أو من مارس فعل التسمية.

حيث عبَّر مُعجم الأسماء الذكورية والأنثوية في قسنطينة على مدى قرن –غير مُتواصل– من الزمن، عن الكثير من الشُحنات الدلالية المُتحولة التّي أظهرت الاسم بمثابة **هُوية ثقافية** مُعبّأة بالكثير من *الرسائل التبليغية والخطابات التعبيرية* الناطقة بماهية نفسية الأفراد وانتماءاتهم الاجتماعية والثقافية والحضارية. كما عكست مُختلف الحمولات الدلالية التي شُحنت بها تلك الأسماء، أنّنا لا نحمل في الواقع إلاّ اسما اختير لنا سلفا من قبل آخرين، و هو معبأ دوما برغباتهم وإسقاطاتهم، ومُعبِّر في الأغلب عن أهم سمات تراثهم الثقافي الاجتماعي. فالاسم الممنوح عند الميلاد إمّا أن يكون **عنوانا للحب**[77] الذي نُكِّنُهُ

[75] من بين تلك العوامل ما جاء مُرتبطا بالخصائص المُتعلقة بالهوية الثقافية لمن مارس فعل التسمية أو المُسَّمِي، ومنها ما جاء مُتعلقا بتداعيات الظرف السياسي المُتزامن وظهور الاسم، ومنها أيضا ما ارتبط بميزات العُرف التسموي السائد في مجال جغرافي دون آخر...

[76] المقصود ذات المسّمي أو المانح.

[77] وهي حالة أغلبية الأسماء/ الصفات، التّي عُبِّئت عند الذكور بكلِّ ما فيه تعبير عن الطهر، الطيبة، العدل، السلامة، الشرف، الكرم. وبكلِّ ما رمز إلى العفّة، العذرية، الجمال الخَلقي والخُلقي عند الإناث...

للطفل، وإمّا أن يكون **تعبيرا عن ضيق** أو **ترجمة لصدمة** أحدثتها ولادته، ولنا في الأسماء الأنثوية: بركاهم، حدّة، ختيمة، طلية خير تعبير على ذلك.

أثبتت لنا مُختلف التصنيفات التِّي جاءت عليها السِّجلات الدلالية للأسماء، أيضا أنّ اختيار الاسم في قسنطينة ليس فعلا اعتباطيا، وإنّما هو فعلُ مُعَبَّءٌ بالكثير من الدلالات وشاهد على العديد من الخلفيات والمرجعيات ذلك أنّ لكلِّ سِّجل ظرفه أو واقعه الخاص المُتسبِّب في بُروزه أوانبعاثه؛ وعليه يتجلّى لنا واضحا بأنّ **وظيفة التسمية** قد تعدَّت الجانب **التعريفي** لتصل إلى جانب **تعبيري** عَكَست مُختلف تصنيفاته الدلالية خلفياتٍ سوسيولوجية وعقائدية وإثنية خاصة، كما رّسخت انتشارا ثقافياً بين فضاءات مُحددة.

وعلى الرغم من التطور الذي عرفته الخارطة التسموية القسنطينية دلالةً و تركيباً وذوقاً إختيارياً (انتقائيا) على مدى قرن من الزمن، إلاّ أنَّ الجانبين **الدلالي** و**التصنيفي** قد سجَّلا حضورهما بقوة، فشرعية الانتماء الديني التي سجّلها الفعل التسموي *صريحة* في بداية القرن العشرين باعتماده لأسماء من قبيل الاسم/ الرمز «محمد»؛ هي نفسها التِّي سعى لُحاكاتها *ضمنيا* بداية القرن الواحد والعشرين لكن بمخزون دلالي ورمزي مُغَاير وبرؤية تصنيفية خاصّة شكَّل فيها هاجس الابتكار أكثر من ضرورة.

وعليه يُمكننا القول أنّه قد حدثت مع مرور الوقت تغيُّرات كبيرة على العادات والأعراف التسموية القسنطينية نجحت في إحداث اضطراب (أو ثورة) داخل التمثُّلات الجمعية والمُمَارسات الأونوماستيكية في الفضاء القسنطيني عبر الزمن فبعد أن اقتضى العُرف بعدم تسمية[78] الابن حتّى يوم سابعه (السابع أو السبوع) خوفا من إلحاق الضرر به (العين أو الحسد)، وبعد أن كان مجرد تلفظ الزوج باسم زوجته تابوها اجتماعيا[79]، صار التفاوض قائما حول مسألة التسمية مُباشرة بعد حدوث الزواج أو الحمل وأحيانا حتَّى قبلهما... وبعد أن كان الاسم الشخصي مُلتزما بحُدود الفضاء الذي وُجد فيه، فهو مُقيّد لا يُمكنه التحرك وتخطِّي حُدود فضائه، وإن تمّ له ذلك تمَّ ببطء، أضحى بمثابة **شاهد للزمن**

---

[78] غالبا ما تُعزى عملية اختيار اسم المولود إلى الجدين من الأب (الجد أولا ثم الجدة في حالة وفاته) أو إلى الأب في حالة وفاتهما خاصة إذا كان المولود ذكراً فالمجتمع القسنطيني مجتمع ذكوري.

[79] كان مُجرد تلفظ الزوج باسم زوجته على الملإ يعتبر انتقاصا من رجولته، لذلك غالبا ما حلَّت الألفاظ (لَمْرَا، الدَّار، هِي، أمُّكْ....) محلّ الاسم الشخصي للزوجة.

(témoin du temps) أو **شاهد عيان** عن واقع اجتماعي، **ورسالة تبليغية** يُراد من خلالها تسجيل الاختلاف، أو إبراز لموقف أيديولوجي خاص، أو الإشارة إلى خُصوصية ثقافية أو لُغوية مُحدّدة أو الإعلان عن ذوق خاص، **وأداة للتحبُبِ والتقرب، ووسيلة لتحقيق الذات** (moyen d'identification) ولتسمية الفضاءات[80] والشوارع والأماكن، **ومُؤشرا على الانتماء** (signe d'appartenance)**،** وسببا في **الإقصاء الاجتماعي**[81]**، ودليلا على الاندماج** إلى ثقافة الفضاء المُسْتَكْنَى؛ وفي الاختفاء الملحوظ للأسماء الأمازيغية من مُدونتنا تأكيد على ذلك[82].

وفي الأخير نستطيع القول بأنّ: التسمية ظاهرة مُعقّدة ومُتشابكة، تستدعي من الباحث نظرة شُمولية (لا إقصائية) حتّى يتوصل إلى فكِّ رُموزها وتفسير مُسبِّباتها، ذلك أنّ النظر إليها من زاوية واحدة سيحصرُ التفسير في نطاق ضيِّق وسيُقصي العديد من العوامل المُساهمة الأخرى، إذ سيطمسُ فكرة أنّ التسمية نتاجٌ لتضافر عدّة عوامل.

وبأنّ فهم لماذا وكيف تتهيكل الوُصْلَة الثلاثية [فضاء اجتماعي– تراث محلي- هوية ثقافية] داخل المخيال الأونوماستيكي في الفضاء القسنطيني، يمرُّ إذن عبر فهم لكلِّ المجتمع ولماهية ما يُمثل فعل التسمية لأفراد هذا المجتمع.

كما لا يسعنا التأكيد على أنّ هذا البحث –على الرغم من الصعوبات التي واجهته– لم يكن إلاّ محاولة للكشف عن أهم الدلالات المُتحكمة في المخيال التسموي للقسنطينيين، في اتجاهٍ لإعادة قراءة جانب من موروثهم الحضاري، وفي مُحاولة لرصد أهم تفاعلاتهم السوسيولوجية ورهاناتهم الثقافية التي أسهمت في بناء حقلهم الرمزي.

---

[80] وقسنطينة فضاء غالبا ما تحمل في المحلاّت التِّي يمارس أصحابها أنشطة خدماتية كالمقاهي وصالونات الحلاقة والمكتبات وفضاءات الأنترنيت أسماء شخصية مُصّدرة باللفظ "عند" أو"Chez".

[81] غالبا ما يتم الإقصاء الاجتماعي للبنات لحظة ولادتهن بمنحهن أسماء خارجة عن العُرف أو مُعبِّرة عن الضجر والسأم، وعن الإقصاء الاجتماعي أو العرقي بسبب الاسم الشخصي يُنظر:
Negrouche, Nacer, «Changer le prénom pour trouver un emploi : discrimination raciale à la française», *Le Monde Diplomatique*, N° 552, Mars 2000.

[82] فعلى الرغم من وجود العديد من سكان قسنطينة المُنحدرة أصولهم من القبائل الكبرى والذين اتفق القسنطينيون على تسميتهم «قْبَايَلْ نِغَاسْ» لتفريقهم عن سكان القبائل الصُغرى أو «قْبَايَلْ حَضْرَة»، إلا أنّ المقابلات التي قمنا بها حول الموضوع قد أثبتت لنا تبنيهم لمبادئ التسمية العربية كحركة اندماجية منهم في فضائهم الاجتماعي المعيش (قسنطينة).

على أن تُسهم النتائج المُتوصل إليها[83] من خلال المُقاربة المُعتمدة، في فتح آفاق جديدة أمام غيرنا من الباحثين من ذوي الاختصاصات المُختلفة، نرجو أن نكون قد أعطينا الموضوع حقّه من البحث والتحليل...

[83] والتّي لم نورد إلا جزءا منها ذلك أنّ هذا الموضع قد ضاق عن ذكرها كلها.

المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية
البرنامج الوطني للبحث : السكان والمجتمع

دفاتر المركز رقم 13-2005

الحركة الجمعوية في الجزائر
الواقع والآفاق

منسق
الزبير عروس

منشورات CRASC